



البُنى التّقابليّة العابرة للنّصوص في الخطاب القرآنيّ المتعلّق بالمرأة - مقارنة تأويليّة تقابليّة
د.البشير عزوزي جامعة محمد البشير الإبراهيمي، برج بوعريّج (الجزائر)
مخبر الدراسات الأدبيّة واللّغويّة المعاصرة،
Elbachir.azzouzi@univ-bba.dz

ملخص (لا يتجاوز 10 أسطر)	معلومات المقال
الخطاب القرآني خطاب فريد في لغته التي لا تضاهي وعجيب في معانيه التي لا تنقضي، ومن أهمّ الظواهر اللّغويّة التي يميّز بها القرآن الكريم ظاهرة البُنى اللّغويّة التي يتكرّر ذكرها في مواضع مختلفة من القرآن الكريم تكراراً إعجازيّاً عجيباً؛ فيردّ لمزيد جمالٍ ووافر بيانٍ، ممّا يجعل المقابلة بين هذه المواضع أمراً حتميّاً لاكتمال الدّلالة واستقامة التّأويل، وقد تنبّه لهذه الظاهرة علماء تفسير القرآن بالقرآن، ثمّ جعلتها نظريّة التّأويل التّقابليّ ركناً رئيساً في خطاب التّأويل. وسنركّز في هذه المداخل على البُنى التّقابليّة المتعلّقة بالمرأة - وهي كثيرة جدّاً - لنبرز احتفاء الخطاب القرآني بالمرأة أولاً، ثمّ نستبطن هذا الخطاب ونستكناه ثراءه الدّلاليّ عن طريق هذا المفهوم التّقابليّ المهمّ.	تاريخ الارسال: 2023/05/15 تاريخ القبول: 2023/05/24 الكلمات المفتاحية: التأويل: النص؛ مريم، القرآن الكريم: التّقابل.

Article info	Abstract : (not more than 10 Lines)
Received	<i>The Quranic discourse is a unique speech in its incomparable language and wonderful in its unceasing meanings. Among the most important linguistic phenomena in which the Holy Quran is distinguished is the phenomenon of linguistic structures that are frequently mentioned in various places of the Holy Quran in a wonderful miraculous repetition; For more beauty and availability of rhetoric, Which makes the contrast between these places an imperative for the completeness of the significance and the integrity of the interpretation. Scholars of the interpretation of the Quran have alerted this phenomenon, and then the theory of cross-interpretation has made it a cornerstone of the discourse of interpretation. In this intervention, we will focus on the recurring structures related to women - and they are very many - to highlight the celebration of the Quranic discourse on women first, then we discover this discourse and its semantic richness through this important concept of reciprocity.</i>
Accepted	
Keyword	
Interpretation/Text/ marian/ouran/ meet	

مقدمة

تعتبر كثير من نظريات التأويل النصّ ارتساماً للوجود وتجلّ من تجلياته، فهو الشكل المكتوب له، والصّورة النّاطقة منه، لذا كان لزاماً على المؤلّ أن يستنطق الوجود من خلال النصّ، وأن يستكنه أسراه من خلال اللّغة، ومن أبرز مفاتيح الوجود وأدوات فهمه إدراك التّقابلات الدّقيقة التي يقوم عليها، وكذا تحديد العلاقات العجيبة بينها. ومن هذا المنطلق أثبتت نظرية التأويل التّقابلي وجودها واكتسبت شرعيّتها، حين قدّمت نفسها بديلاً إجرائياً ومنهجاً قرائياً يراهن على تكبير المعنى وتدقيقه، ويثبت العلاقة الخالدة بين النصّ والوجود من جهة، والإنسان والوجود من جهة أخرى. ولا شكّ الخطاب القرآني من أكثر الخطابات رسماً للوجود بكلّ صوره وقوانينه وسننه، ومن هنا كان الإجراء التقابلي ضرورة قصوى لفهم هذا الخطاب وإدراك أسراه والظفر بفوائده وحكمه.

1 / التّأويل التّقابليّ ورهان المعنى:

تركّز نظريّات التّأويل المعاصرة على قضيّة التّقابل وما يقدّمه من إمكانيّات توسّع المعنى وتكبّره، فإذا كان النّصّ في التّصور التّأويليّ التّقابليّ هو «مجموع التّقابلات المعجميّة والدّلاليّة والسّياقية المنتظمة في الخطاب الذي تحمله والمحيّلة على الكون الفسيح، والنّصّ كون لغويّ متقابل، ومنطلق رحلات دلاليّة وتأويليّة عالمة وبليغة»، (محمد بازي 2013، ص 206) إنّ هذا التّحديد التّقابليّ للنّصّ الذي يعتبر خلاصة النّظر التّقابليّ يتميّز عن كثير من تعريفات النّصّ التي تكتفي في أغلبها ببنيته الظّاهرة والعلاقات الدّاخلية المكوّنة له، فهو يفسّح على الظّاهر والمضمّر والحاضر والغائب والدّاخل والخارج.

ويمكن لنا من خلال هذا التعريف أن نتلمّس منطلقات النّظريّة وفرضياتها المتعدّدة والتي يمكن لنا أن نجعلها في العناصر التّاليّة: (جلال، 2015، ص 241)

- النّصّ عالم من التّقابلات الظّاهرة والخفيّة.
- منتج النّصّ يحوّل العالم المتقابل في تفاعله مع الدّات إلى عالم من المعاني المتقابلة.
- هذه التّقابلات الظّاهرة والخفيّة لها من القوّة ما يبلّغ المقاصد والغايات، ويحقّق التأثير المرغوب فيه.

ومن هنا فإنّ فهم النّصّ لا يتحقّق إلّا بإدراك التّقابلات التي تشكّله، سواء أكانت تقابلات ظاهرة أو مضمرة، حاضرة أو مستحضرة، وهذا هو الرّهان الذي تقدّمه هذه النّظريّة انفتاحاً للنّصّ على نفسه وعلى غيره من النّصوص، وسنركّز في هذه المداخل على القضايا المهمّة في الكون متجاوزين التّقابلات البلاغيّة واللفظيّة، وهدفنا الأساس هو تلمّس فلسفة الشّاعر التي تختار للإنسان موقعه في هذا الكون.

ومن خلال تحديد التّصوّر التقابليّ للنّص يتّضح الإجراء التقابليّ في فهم النّصوص والخطابات، فهو «أداة بيان المعنى وتفهيّمه عبر إحداث التّقابل بين المعاني والعناصر بما يوضّحها أكثر، لأنّ التّقابل حاصل في التّفكير المنتج للغة، وفي انتظام الكلمات والمعاني، ويجلّيه التّقابل بمستوياته الكثيرة، ومظاهره التي ينفّس لها ذكاء المتفهم واجتهاده»، (بازي، 2013، ص 81) وعلى هذا الأساس يتّضح الدّور البارز للتّقابل؛ فهو «في كلّ الحالات يكسب المعنى الشّعريّ عمقاً، وينفث حوله شيئاً من التّوتّر» (شفيح السيد، 1999، ص 17)، فالشاعر يعمد في كثير من المواقف إلى صناعة التّقابل بتجاوز الأضداد والمتناقضات وعياً منه بسعة أفق التّقابل، فالمسار الخطّي للنّصّ هو الذي يسهم بدرجة كبيرة في تأسيس العلاقة بين الأشياء. وإذا تجاوزنا المستوى الخطّي إلى المستوى العميق أدركنا من التّقابلات ما نفجّر به المعنى والدلالات. فالتأويل التقابليّ يقوم على نوعين من التّقابلات هما دعامة المقاربة التّداوليّة، ومن خلالهما يستطيع المؤلّ استكناه التّقابلات الدّاخلية للنّصّ: (بازي، 2013، ص ص 81-82)

أ- التّقابلات الأفقيّة:

ونقصد بها أنّ عنصراً ما (أ) يقابله في البنية الخطيّة للملفوظ عنصر (ب)؛ أي في الجملة الواحدة أو في البيت الشّعريّ الواحد مثلاً، وقد تحصل تقابلات أفقيّة كثيرة في جملة واحدة، وتشكّل هذه التّقابلات من المفردات، كالطباق والمقابلة والمشارك وغيرها.

ب- التّقابلات العموديّة:

ونقصد بها تقابل معنى في البنية الظّاهرة مع عنصر في البنية العميقة عبر التّلميح والكناية والاستعارة والمفارقة وغيرها ممّا ينبني على التّركيب الغامض والمحتمل للانفتاح الرّاجي للتّعّدّد.

وهنا يتجاوز المؤلّ المستوى الظّاهر، ويتحرّر من رقبة اللفظ إلى سعة التنقيب والتأويل وتعدّد المعنى، والغوص في تخوم الأسطر، لينتهي إلى تفجير النّصّ بالدلالات وفكّ المغزى الذي تقصده كثير من النّصوص الإبداعية (عزت، 2012، ص 513).

ومن هنا ينبغي على المؤول أن يتحرى كلّ أنواع التّقابلات ويحدّد العلاقات بينها، بدءاً من أصغر المكوّنات المشكّلة للتّقابل كالأوزان والمشارك والطباق إلى أوسع مدى يمكن أن يبلغه الإجراء التّقابليّ كتقابل النّص مع النّصوص الأخرى وكذا تقابله مع السياقات التي تركّز عليها نظريّة التّأويل، سواء أكانت سياقات الإنتاج أم سياقات التّأويل التي تختلف باختلاف المعطيات التي يتيحها تطوّر المعارف وتلاقح العلوم.

وإذا وضعنا ملكة التّأويل والمسبقات المعرفيّة للمؤول في الحسبان، فإنّنا نسلّم بأنّ توفير المؤول في إدراك التّقابلات يختلف من مؤول لآخر، فالتّقابلات التي يتيحها النّص كثيرة ومنبثقة عن مجالات معرفيّة مختلفة، وقد أوصلها صاحب النّظريّة إلى سبع وثلاثين نوعاً من التّقابل نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: (العوادي، 2018، صص 38-39)

- تقابل الإثبات والتّفي.
- تقابل الأمكنة.
- التّقابل الزّمني.
- تقابل التّحاور.
- تقابل التّراتب.
- تقابل التّشابه.
- التّقابل النقيضي.
- تقابل النّصّ والعنوان.
- تقابل النّصّ وسياقه.
- تقابل النّصّ والنّصوص الأخرى.

- تقابل الظّاهر والباطن.

- تقابل حال الدّوات.

- تقابل الفاعل والمفعول.

وغيرها من التّقابلات التي يهدف مقترحها إلى إخراج التّقابل من التّصوّرات الضّيقة التي تحصره في التّضاد والمقابلة، وتوسّعة سعة الكون الذي تستمدّ نظريّة التّأويل التّقابليّ شرعيّتها منه ومن قوانينه ومسلّماته، فهي تتبّع التّقابلات من الصّغرى إلى الكبرى الموسّعة، من داخل النّصّ إلى نصوص أخرى ثمّ إلى السياقات المتعدّدة التي تصنعه وبها ينظرف.

ومن هنا يمكن تطبيق إجراءات التّأويل التّقابليّ على سائر النّصوص والخطابات قديمها وحديثها، شعرها ونثرها، وقد قارب محمّد بازي أنواعا كثيرة من الخطابات مقارنة تقابليّة في كتابه تقابلات النّصّ وبلاغة الخطاب (بازي، 2010)، فمن الشّعْر القديم إلى المعاصر إلى الخطاب السرديّ، وكذا الخطاب الدّيني ممثلاً بأبي حامد الغزالي من خلال كتابه إحياء علوم الدّين، إلى نصوص الحُكم والمناقب، ممّا لا يدع مجالاً للشكّ في صلاحية المقاربة التّأويليّة كإجراء قرآنيّ إبداعيّ لكلّ خطاب، وهنا يمكن لنا أن نوجّه الدّعوة إلى تبني هذه المقاربة واقتراحها على الطّلبة توسيعاً لآليات القراءة وانفتاحاً على المناهج وتجديداً يتماشي مع المعطيات.

2/ الكون المتقابل في القرآن الكريم:

الخطاب القرآنيّ خطاب فريد في نظمته ولغته وإيقاعه، ولكن الأهمّ من ذلك كلّهُ هو الكون المنتظم داخله، فقد أنطق الله الكون من خلال القرآن، ثمّ بيّن قوانين انتظامه، عن طريق الأزواج التي جعلها الله من مسلمات هذا الكون ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات، 49)، لقد بنى الله الكون وأسسّه على قانون الثنائيات، ومن أدرك حقيقة هذا القانون فهم جانباً مهماً من هذا الكون، وأدرك علاقته به ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلّها مما تنبت الأرض ومن أنفسكم أفلا تبصرون﴾ (يس، 36)، وقد فصل القرآن

الكريم في هذه الأزواج تفصيلاً عجبياً وبينه بياناً لا لبس فيه، وأبرز الأزواج المذكورة في القرآن الكريم، والتي تبني عليها أهم محاوره: (البقاء /الفناء)، (الخير /الشر)، (الدنيا /الآخرة)، (الجنة /النار)، (الغيب /الشهادة)، (الإيمان /الكفر)، (الثواب /العقاب)، (الجن /الإنس)، (الذكر /الأنثى)، وغيرها من الثنائيات التي أدرك علماء التفسير أهميتها في فهم الكتاب الخالد واستكناه المعاني منه.

يكشف لنا الرجوع إلى خطابات التفسير عن وعي دقيق بقضية التقابل أثناء بناء الفهم، والنّاظر في هذا التراث يرى كثيراً من التميّز والنبوغ في الاستباق إلى مخبّات الخطاب القرآني الذي لا تنقضي عجائبه ولا تنفذ درره، وهذا ما كان محلّ اهتمام نظرية التأويل التقابلي ومنطلقاً مهماً من منطلقاتها، وفيما يلي أهم الأدوات التفسيرية ذات النزعة التقابلية في التعامل مع الخطاب القرآني في ثوب تأويلي تقابلي معاصر يتماشى مع جديد الدرس اللساني والبلاغي المعاصرين:

1/ التقابلات الأفقية والتقابلات العمودية:

تقدّم الحديث عن التّقابلات الأفقية والعمودية في المهاد النظريّ الذي قدمناه في محاضرة (الفهم بالتقابلات)، وفي هذا الموضوع نرى كيف تعامل علماء التفسير مع هذين النوعين من التّقابلات في ممارساتهم التأويلية.

نلاحظ أنّ هذه الحركة التأويلية قوية الحضور في خطابات التفسير، حيث ينطلق خطاب التفسير من التّقابلات الأفقية في البنية الجمليّة ثم تتحرك بشكل عمودي للوصول إلى البنى العميقة التي تنافس المفسرون في بلوغها، خاصّة وأنّ النصّ القرآنيّ يمتاز بعمق لا محدود. (بازي، 2015، ص11)

2/ التّقابلات الجسريّة (التّقابلات المضاعفة):

تمثل الاستعارة نقطة خلاف كبير بين المفسرين نظراً لبنيتها اللغوية القلقة، وكذا غناها الدلالي اللامحدود، خاصة إذا تعلق الأمر باستعارات القرآن الكريم (الاستعارات الربانية) التي يعدّ الخوض فيها ضرباً من المغامرة وجنساً من المجازفة.

تطوي الاستعارة تقابلات كثيرة كالمستعار له والمستعار منه، والتقابل بين الحقيقة والمجاز، وبين الحسي والمعنوي وغيرها من التقابلات، وفي هذا الموضع نعمّق النظرة التقابلية للاستعارة من خلال خطاب المفسرين، وبالأخصّ تفسير جمال الدين القاسمي (محاسن التأويل)، والطاهر ابن عاشور (التحرير والتنوير)، والألوسي (روح المعاني).

يتوقّف هؤلاء الأعلام عند الاستعارات طويلاً مبينين مواطن تميّزها مظهرين مكامن إعجازها باسطين خلاف المفسرين حولها، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على حساسيتها خاصة إذا تعلق الأمر بآيات العقائد، ومن الاستعارات التي كثر الخلاف حولها استعارة سورة الرعد في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ (الرعد، 16)، لا شك أنّ هذه الآية تتحدّث عن المؤمن والكافر، وهذا ظاهر من خلال السياق العام للآية، ولكنّ المفسرين اختلفوا في تجاوز هذه الاستعارات للمألوف، فهناك تعالق استعاريّ، أو بالأحرى خطاب استعاريّ متعدّد، ينبغي على المؤلّد أن يدقّق الحركة في داخله وينظّم انتقاله فيه، ولا يتمّ له هذا إلّا عبر «جسرتأويلي» (بازي، 2015، ص76) نميّر فيه بين الاستعارات المتوالية، ثمّ مكّونات هذه الاستعارات والتقابلات الكامنة فيها، ثمّ الجمع بين هذه التقابلات لتحقيق فهم كامل للمراد من هذا الخطاب الاستعاري المضاعف.

ومن هنا فقد أثار المفسرون قضايا مهمّة تتعلق بالخطاب الاستعاري، وأشاروا إلى إمكاناته اللامحدودة، ممّا كان أساساً معرفياً تبلور من خلاله مفهوم التقابلات الجسريّة، والذي يعدّ الأنموذج الفريد في تجاوز البنى الخطيّة إلى البنى العميقة، والذي يمكن أن نصوغه من خلال التقابل التالي (التقابل الذهني/ التقابل النصّي).

3/ التقابل في المثل القرآني:

تعدّ الأمثال من ركائز الخطاب القرآني، كونها تردّ في سبيل الإقناع، باعتبارها أدلة عقلية لا ينكرها ذو عقل سليم. ولا يمكن فهم الخطاب القرآني دون فهم أمثاله. ومن الملاحظ على الأمثال بصفة عامة أنّها تبنى على نسق تقابلي، فكيف بالقرآن الكريم الذي يعدّ كونا متقابلاً.

تنطلق نظرية التّأويل التقابليّ في التنظير لقضيّة المقاربة التأويلية للمثل القرآنيّ من جهود المفسّرين التي توقّفت عند فريدة الأمثال القرآنيّة وإعجازها وقوّة إقناعها، ومن الأمثال التي توقف المفسّرون عندها طويلاً المثلّ الوارد في سور الرعد في قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ (الرعد، 17)، يتركز هذا المثل على مجموعة من التقابلات: كالماء النازل من السماء/ الماء السائل في الأرض، والسيّل/ الزبد، المعدن/ زبد التدويب، العقل البدوي (الغراسة)/ العقل الحضري (الصناعة)، والتقابل الذي من أجله ضرب المثل وهو الحق/ الباطل.

هذه مجموعة من التقابلات الظاهرة التي بُني عليها المثل، وهي أداة العبور إلى التقابلات الباطنية التي تفتح آفاق الفهم وتكشف طاقات هذا الخطاب الدلالية والحجاجية.

5/ البنى التقابلية العابرة للنصوص:

يتشكّل النصّ القرآنيّ من نصوص كثيرة؛ فكلّ سورة هي نصّ، وممّا يميّز النصّ القرآنيّ كثرة البنى النصيّة التي يتكرّر ذكرها في نصوص قرآنيّة كثيرة، ممّا يجعل الإحاطة بالمعاني الناتجة عن السياقات المختلفة لهذه البنى حتميّة تأويليّة تراهن على النفاذ إلى بواطن النصوص وتحقيق محصّلة تأويليّة متكاملة، وتستقي نظرية التّأويل التقابليّ هذا المفهوم من منهج تفسيريّ شهير هو تفسير القرآن بالقرآن، ويقوم هذا الاتجاه التّفسيريّ على الجمع بين آيات وكلمات الخطاب القرآنيّ لتحقيق الفهم المراد، وتعتبر نظرية التّأويل التقابليّ هذا الإجراء سابقاً لعصره متجاوزاً لأوانه، كونه يقدّم آلية قرائيّة هامة ومبتكرة تُحرّر الكلمات من نصوصها وتربط العلائق بينها وبين بنى لغويّة في عالم نصّيّ آخر، ويتحقّق ذلك

بـ «العبور من بنية نصيّة داخل السورة الواحدة إلى ما يقابلها في بنية نصيّة أخرى» (بازي، 2015، ص134)، في نصّ أو أكثر من نصّ، وهذا التّعامل مع البنيات النصيّة اتّكأ عليه أصحاب هذا الاتّجاه اعتقاداً بأنّ القرآن كفيل بأنّ يفسّر بعضه بعضاً، وأيّاً كان مرادهم فإنّ هذا الإجراء في نظر نظريّة التأويل التّقابليّ أساس متين لبناء مفهوم تقابليّ بليغ يوسّع دائرة الفهم ويفسح مجال التأويل، كما يحقق شرطاً أساساً من شروط بلاغة التأويل ألا وهو الانسجام، فربط البنيات النصيّة دليل على صحّة التأويل واستقامة مساره. وكاد ينفرد علماء التّفسير بهذا النوع من التّقابل كون الخطّاب القرآنيّ خطاب ربّانيّ في منتهى البلاغة وفي أقصى درجات الانسجام.

وقد لا حظنا محاولة من حسام الدّين الرّومي في كتابه (رسالة في قلب كافوريات المتنبّي من الميخ إلى الهجاء)، سعى من خلالها إلى الاستدلال على بعض البنيات الكافورية التي تحتمل المدح والهجاء؛ حيث قابل بين هذه البنيات وبنيات أخرى من نصوص كافوريّة هجائيّة صريحة، وسماها (إظهار المضمّر)، وهذا المنهج ينبئ عن وعي شامل بخطاب المتنبّي، ويكشف عن قدرة متميّزة في استحضار البنى المتقابلة، غير أنّه قد يجرّ إلى الإفراط في التّأويل وتحميل النّصّ ما لا يحتمله. ولنا في هذه القضية بحث قيد النّشر إن شاء الله.

وهنا تلفت بلاغة التّأويل في شقّها التّقابليّ الأنظار إلى هذا الفنّ التّأويليّ، الذي يعدّ فتحاً في عالم التّأويل، خاصّة مع توقّر التقنيات التي تسهّل استدعاء البنيات المتشابهة في منتج مبدع أو مجموعة من المبدعين.

2/ البنى التّقابليّة في نبأ مريم عليها السلام:

ذكرت مريم عليها السلام في مواضع كثير من القرآن الكريم، كونها وابنها من أعظم الآيات التي آمن بها سواد عظيم وافتتن بها خلق كثير، وقد نوع الله في النصوص التي تتحدّث عن هذه الآية الباهرة في سور كثيرة من القرآن الكريم: (آل عمران، النساء، المائدة، مريم، الأنبياء، المؤمنون، الزخرف، التحريم)، والمتأمل في هذه النصوص يجدها تختلف في طريقة نظمها وكيفية عرضها للأحداث، ولاشكّ أنّ هذا التكرار له حكم ربانيّة كثيرة لا

يدركها إلا من وضع النصوص على مائدة التقابل وعرضها عرضها شاملاً، فيجد المضمهر في موضع مصرحاً به موضع آخر والغامض مبيناً والمحتمل مرجحاً وغيرها من الفوائد التأويلية التي ينتهي إليها من جمع هذه البنى وأحاط بسياقاتها المختلفة.

وسنقارب البنى اللغوية المشكّلة لنبا مريم عليها السلام في المواضع المختلفة التي ذكرت فيها، ونبيّن مدى تلاحم هذه البنى في فكّ الملعوز وبيان الغامض، وسنّخذ من موضع السورة التي تسمّت باسمها (مريم) نصّاً محوراً ثمّ نسافر بينياته لنصوص أخرى وفق المقاربة التأويلية التقابلية، مستعينين في هذه المقاربة بزاد تفسيريّ يزيد عن خمسة عشر تفسيراً حتّى لا نقول في كلام الله بغير علم.

1/ ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ مريم، الآية: 16/ ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْنَتْ فَرْجَهَا﴾ الأنبياء، الآية: 91:

هاتان البنيتان اللغويتان الواقعتان في نصّين اثنين تتعاضدان وتتساندان لتحقيق معنى مهمّ وحقيقة جليّة ألا وهي نبوءة مريم عليها السلام، فملتأمل في السياقين الذين وردت فيهما البنيتان يجد أنّهما وقعتا في سياق ذكر جمع من الأنبياء، «ومن منع تنبؤ النساء؟» (الألوسي، 2004، ج9، 89)، فلمّا انتفى وجود المانع من وصف النبوءة عن المرأة صحّ التأويل الذي اتّخذ من السياقين المصاحبين للبنيتين اللغويتين مطيّة له، ففي نصّ سورة مريم يتكرّر ذكر عبارة (واذكر) ثمّ يليها ذكر نبيّ من أنبياء الله، وفي نفس السياق يرد ذكر (مريم) بعد الواو التي أعقبها ذكر الأنبياء، ومن هنا تتكافل البنيتان لتحقيق هذا المعنى وترجيح هذا التأويل.

2/ ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ مريم، الآية: 17/ ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾ آل عمران، الآية: 45

ذكر في سورة آل عمران أنّ الذي خاطب مريم وزفّ إليها بشرى المولود والامتحان العظيم هي الملائكة، ولكن البنية النصيّة التي في سورة مريم حدّدت لنا من الذي خاطب مريم من الملائكة، وهو الروح الأمين عليه السلام، فعن طريق هذا التقابل بين البنيتين نجد

تخصيص العام؛ فالملائكة عامّ وجبريل خاصّ، وهذا من إعجاز الخطّاب القرآنيّ الذي يكرّر ليبين، كما يفسّح المجال للمؤوّل حتى يتحرّك وينتقل بين نصوص هذا الخطّاب العجيب.

3/ ﴿قال إنّما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً﴾ مريم، الآية: 19/ ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله يبشرك﴾ آل عمران، الآية: 45

يتراءى للنّاظر في البنيتين السابقتين أنّ هناك شيئاً من التضارب؛ ففي الأولى يبدو أن جبريل أسند الفعل إلى نفسه، وفي البنية الثانية أسند الفعل لله تعالى، وهذا على قراءة من قرأ (لأهب لك)، فهناك قراءة أخرى (لهب لك)، ولكن القضية محسومة في آل عمران، فالبشرى والإيجاد والعطاء من الله تعالى، فيتّضح إذن أن الله نسب الفعل لجبريل على أنّه الواسطة والسبب،

4/ ﴿غلاماً زكياً﴾ مريم، الآية: 19/ ﴿إنّ الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين، ويكلّم الناس في المهد وكمهلاً ومن الصالحين﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ومصدّقاً لما بين يديّ من التوراة ولأحلّ لكم بعض الذي حرّم عليكم، وجئتمكم بأية من ربكم فاتّقوا الله وأطيعون﴾ آل عمران، الآيات من 45 إلى 50:

العبارة الأولى في سورة مريم تصف الغلام البشرى بأنّه غلام زكيّ دون بيان ولا تفصيل في هذه الزكاة، ليأتي الوصف شاملاً والمدح كاملاً في موضع آل عمران (الشنقيطي، 1995، ج3، ص387)، فالزكاة المقصودة هي الآيات الباهرة التي يجريها الله على يديه، من خلقه العجيب وإنشائه الفريد إلى تكليمه الناس في المهد إلى رسالته، وغير ذلك من المعجزات التي تفرّد بها والخوارق التي تميّز لها، فأَي وصف أذكى من هذا؟ وهنا يتبيّن التعالق العجيب والتناسق الرائع بين نصوص هذا الخطّاب الربانيّ، الذي لا يدع قولاً لمثقوّل، فموضع سورة مريم موضع تفصيل في نبأ إيجاده ومعجزة خلقه وطهارة أمّه عليها السلام، أمّا موضع آل عمران فهو موضع التفصيل في عجائبه وصدق نبوءة وبيان شريعته وتفصيل مؤيّداته التي أجزاها الله على يديه.

5/ ﴿وَلَمْ يَمَسَّ سِنِي بَشَرٍ وَلَمْ أَكْ بِغَيًّا﴾ مريم، الآية: 20/ ﴿وَلَمْ يَمَسَّ سِنِي بَشَرٍ﴾ آل عمران، الآية: 47/ ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ الأنبياء، الآية: 91

تبين البنيتان الأولى والثانية حقيقة إحصان الفرج التي ذكرها الله في الموضعين الآخرين؛ في سورة الأنبياء وفي سورة التحريم، فإحصان الفرج هو منعه من لمس البشر في (حلال أو حرام) (الرازي، 2000، ج22، ص189). وفق آية مريم؛ أي إحصان كلي عن ملامسة الرجال.

6/ ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ مريم، الآية: 22/ ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ المؤمنون، الآية: 50:

تبيّن هذه الآية أنّ مريم اعتزلت قومها وابتعدت عنهم، ولكنها لم تبيّن طبيعة هذا المكان، الذي يبدو من خلال الآية مكاناً بعيداً موحشاً، ولهذا بيّن الله في الآية الأخرى في سورة (المؤمنون) طبيعة هذا المكان؛ فهو ربوة عالية، هي المأوى الهادئ والقرار المريح فيها المأكل والمشرب والأمان.

7/ ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ مريم، الآية: 24/ ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ مريم، الآية: 29/ ﴿وَيَكْلَمْ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ آل عمران، الآية: 46:

تحتل البنية الأولى تأويلين اثنين: (الشنقيطي، 1995، ج3، ص390)

الأول أن الذي ناداها هو جبريل عليه السلام من أسفل الربوة،

والثاني أنّ الذي ناداها هو عيسى عليه السلام، ويعضد هذا التّأويل قراءة من قرأ بالاسم الموصول في محل الفاعل (ناداها مَنْ تَحْتَهَا).

ومن هنا كان لزاماً علينا أن نسافر بهذه البنية عبر نصوص أخرى لنبحث عن بنى تشاكلها لنستجلي التّأويل الأقرب والمعنى الراجح.

إنّ النّظر في البنيتين التّاليتين (فأشارت إليه) و (ويكلّم الناس في المهد). بيّن أن مريم كانت على علم بإمكانية نطق عيسى، فلمّا سألتها قومها عن عظيم فعلتها أشارت إليه بأنّه هو الذي يملك الإجابة، وهنا نقع في احتمالين آخرين:

هل أشارت إليه بناءً على كلام جبريل في سورة آل عمران (ويكلّم الناس في المهد)؟، أم بناءً على كلامه معها لما وضعته (فناداها من تحتها)؟

الظّاهر والله أعلم بمراده أنّها أشارت إليه بناءً على نداء عيسى عليه السلام، ففي هذا النداء حكم جليّة من أهمّها:

- أنّ هذا النداء فيه تصديق لبشرى جبريل عليه السلام، لما أخبرها أنّه سيكلّم الناس رضيعاً.

- أنّ في هذا النداء تثبيت لقلب مريم وسلوان لها وشدّ لأزرها، فحزنها وألمها ليس من غصص المخاض فحسب؛ وإنّما خوفها من ردّة فعل قومها، فجاء هذا النداء كمطمئن لها، بأنّ الذي ناداها كفيل بإثبات براءتها وإظهار طهارتها وإعلان عقّتها.

8/ ﴿وهزي إليك بجذع النّخلة تساقط عليك رطباً جنياً﴾ مريم، الآية: 25/ ﴿كلّما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أتّى لك هذا قالت هو من عند الله﴾ آل عمران، الآية: 37

البنية اللّغويّة الثّانية مؤكّدة للأولى؛ وذلك من وجهين اثنين:

- أنّ زكريا عليه السلام كان شاهداً على كرامات مريم واقفاً على الخوارق التي حدثت بين يديها؛ فقد كان يجد عندها من الطّعام ما يثير فيه الدهشة؛ فقد كان يجد عندها فاكهة الصّيف في الشّتاء وفاكهة الشّتاء في الصّيف، وذكر كثير من المفسّرين أنّه كان يجد عندها طعام أهل الجنّة (الزمخشري، 1990، ج 2، ص 386)

- أنّ هذا الرزق كان يأتيها في حال عافيتها وأمنها وسلامتها، فكيف لا يأتيها وهي في حالة الضعف والألم والمرض.

إنّ البنى النصيّة القرآنية وهي تسافر وتتيح لنا العبور من نصّ إلى آخر إنّما تثبت لنا أنّ القرآن الكريم يبيّن بعضه بعضاً ويؤكد بعضه بعضاً، فانظر إلى عجيب المناسبات ودقيق التكرار الذي يضيف تفصيلاً ويضفي جمالاً ويحمل جواباً.

9/ ﴿قالوا يا مريم لقد جنّتي شيئا فرياً، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت امّ بغياً﴾ مريم، الآيتان: 27-28 / ﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾ النساء، الآية: 151

تبين الآية الأولى طبيعة الهتان المذكور في سورة النساء والذي رميت به مريم؛ وهي أنّها اتّهمت بما لا يليق بمقامها ولا عادات أهلها ولا أخلاق آلهها، فلمّا بين الله طبيعة الهتان أردفها بالبرهان القاطع على براءتها، وأنّها آية لمن أراد أن يتفكّر في قدرة الله وعجيب صنعه.

12/ ﴿والتي أحصنت فرجها﴾ الأنبياء، الآية: 91 / ﴿والمحصنات من النساء﴾ النساء، الآية: 24 / ﴿فإذا أحصن﴾ / ﴿محصنات غير مسافحات﴾ النساء، الآية 25 / ﴿إنّ الذين يرمون المحصنات﴾ النور، الآية: 23

هذه بنيات نصيّة كثيرة من مواضع مختلفة من القرآن الكريم تدور حول مصطلح الإحصان، دون بيان لحقيقته، وهذا ما أجاب عنه الله عز وجل في نبأ مريم عليها السلام، فالإحصان هو منع النفس عن الرجال في الحرام، وقيل منعها عنهم في حلال أو حرام.

إنّ هذا العبور النصّي عبر هذه الجسور اللّغويّة ينير كثيراً من المفاهيم التي تنفتح على التأويل وتنفسح على الفهم وتحتمل التّأويل، وعبورنا هنا كان من مصطلحات الإحصان المطلقة، إلى إحصان مريم، ثمّ نفي المسّ ومقاربة الرجال، وهي حقيقة الإحصان وكمال العفاف.

13/ ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ الأنبياء، الآية: 91 / ﴿وَلَا يَأْتِينَ بَهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلَيْهِ﴾ الممتحنة، الآية: 12

عند مقابلتنا لهاتين البنيتين نقف على أمر غاية في الأهمية، وذلك أننا ندفع وهم من توهم أن جبريل نفخ في فرج عليها السلام على الحقيقة، والحق البين أن البنية الثانية في سورة الممتحنة تدفع هذا الوهم؛ فالله لما تكلم عن نساء البيعة، كنى عن فروجهن وعوراتهن كناية في غاية الأدب والتنزیه، فكيف بصديقة أو نبيّة من خيار نساء العالمين، فالنفخ كان في فرج القميص، «وفروج القميص أربعة: الكمّان والأعلى والأسفل» (القرطبي، 1964، ج 11، ص 337). ويقول الإمام السهيلي عن هذا: « فلا يذهب وهمك إلى غير هذا؛ فإنه من لطيف الكناية، لأنّ القرآن أنزه معنى وأوزن لفظاً، وألطف إشارة وأحسن عبارة من أن يريد ما يذهب إليه وهم الجاهل، لا سيما والتّفخ من روح القدس بأمر القدّوس، ونزه المقدّسة الطاهرة عن الظنّ الكاذب والحدس» (القرطبي، 1964، ج 11، ص 337). الوضع الذي يفتح الباب لسوء التأويل.

ومن هنا يتأكّد أنّ النفخ كان في درع العذراء ليكون الأمر آية من آيات الله للأولين والآخرين وفتنة للناس وبلاء للعقول وامتحاناً للقلوب إلى قيام الأشهاد.

14/ ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ الأنبياء، الآية 91 / ﴿ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها﴾ التحريم، الآية 12

بنيتان لغويتان يفرق بينهما التصريح بذكر مريم، الأولى في سورة الأنبياء والثانية في سورة التحريم، ولعلّ سائلاً يسأل ما سرّ الإفصاح عن اسم مريم في الموضع الثاني، والتكنية عليها في الموضع الأوّل. من خلال النظر في النصّين الذين وردت فيهما هاتان البنيتان، يتّضح لنا والله أعلم أنّ المقام الأوّل مقام أنبياء رجال من مثل موسى وهارون وإبراهيم ونوح ولوط وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذي الكفل ويونس وزكريا، ولا يليق أن يختتم هذا السيل من الرجال بذكر اسم امرأة - وإن علا قدرها - أمّا في المقام الثاني ففي خواتيم

سورة التحريم فقد ذكر الله مجموعة من النساء ختمهم بذكر الصديقة مريم عليها السلام، وهذا من تمام بلاغة القرآن الكريم وحسن نظمته وكمال تصريفه.

إن العبور بالبنى القرآنية من نصّ إلى نصّ ومقابلتها بالنظر إلى سياقاتها أمر في غاية الأهمية، بل هو باب فهم القرآن ومفتاح كثير من غوامضه، فالله عز وجل جعله خطاباً مرناً يتيح للناظر فيه الحركة بين نصوصه والنظر في زواياها، وكل ينال منه بقدر مقدرته على استحضار التقابلات والعبور بها من نصّ إلى آخر ومدّ الجسور اللغوية بين السور، وهذا ما تراهن عليه نظرية التأويل التقابليّ متكئة على جهود المفسرين الذين تبنّوا منهج إيضاح القرآن بالقرآن، ونحن إذ نلفت الأنظار إلى أهمية هذا الإجراء في فهم كلام الله ودفع الشبه عنه نفتح باب توسيع مجال التطبيق ليشمل كلام البشر من شعر ونثر خاصّة مع توقّف الإمكانات التي تتيح جمع النصوص واستحضار البنى المتشابهة، وحسبنا في هذا المقال لفت النظر وتنبيه الفكر، وتوجيه الدعوة لتبنيّ هذا التوجّه التأويلي، ومما تجدر الإشارة إليه أنّنا برمجنّا هذه النظرية (نظرية التأويل التقابلي) على طلبية الماستر ووجهناهم للبحث فيها، وقد لاقى قبولاً وحقّق نتائج نأمل توسيعها من خلال هذا المنبر الكريم.

مراجع البحث: القرآن الكريم، برواية ورش عن الإمام نافع، دار القدس، القاهرة، 2021.

1/التفاسير: (رجعنا إلى تفاسير كثيرة غير هذه، واقتصرنا على المذكورة، لأنّ أغلب المعلومات مكرّرة)

1- الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، التفسير الكبير، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي — بيروت، ط3، 2000

2- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية — القاهرة، ط، 2 1384 هـ - 1964 م

- 3- الجكني الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، ط5، 2019.
- 4- الحسيني الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1995.
- 5- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي - بيروت، ط3، 1987.

2/ الكتب:

- 1- السيد، شفيع، قراءة الشّعروبناء الدّلالة، دار غريب، القاهرة، ط/، 1999.
- 2- بازي محمّد، نظريّة التّأويل التّقابلي، نحو نموذج تساندي في فهم النّصوص والخطابات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013، ص206.
- 3- بازي محمّد، تقابلات النّصّ وبلاغة الخطاب، نحو تأويل تقابلي، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010.
- 4- النّمودج التّأويليّ التّقابلي، معالم التّأصيل ومستويات التّنزيل، دراسات محكّمة في أعمال محمّد بازي، إعداد: إبراهيم أسيكار، مقاربات للنّشر، المغرب، 2018.

3/ المجلات:

- 1/ مجلّة فتوحات، جامعة عباس لغرور، خنشلة، العدد2، جوان 2015.
- 2/ مجلّة جامعة دمشق، المجلّد28، العدد الأوّل، 2012.